الولادة من الظهر

الظلام مطبق ، والليل ستار لكنه لا يخفي الاصوات ، كنت اسمع انينها فيتكرر صداه في جسمي لارددة دون وعي ، قد ننام لكن قلوبنا تبقى مفتوحة تحلم ونشيد ونعيش لحظات حلوة نحقق فيها ما نريد ، ولكن عندما نستيقظ تبدأ مأساتنا حتى النوم .

لم اكن نائما في تلك الليلة ولا زوجتي التي كانت مطبقة عينيها عن قصد ، انها تريد ان تعب قليلا من الزاد لرحلة الغد الشاقة، حركتها بيدي قائلا :

ـ فضة ... يا فضة (ان حالتها تعبانة ، اخاف ان تموت).

فقالت بملل وتكاسل : ياشيخ انك تحمل هموم الدنيا كلها ، نم والصباح رباح والذي يكتبه الله هو النصيب .

ـ ولكنها تتالم يا فضة ...

فقاطعتني قائلة :

ـ وهل بايدينا شيء ... الله يفرج عليها .

اطبقت عيني ، ولكني لم اكن املك القدرة على النوم ، لقد انقلب انينها صراخا حادا ، ليتها كانت امرأة ، اذن لذهبت الى (دير الزور) واحضرت لها اية قابلة حتى لو كلفني ذلك مائة ليرة سورية .. الصراخ اصبح لسعات واخزة ، تقلبت يمينا وشمالا ، حاولت تعطيل احساسي دون جدوى ، التفت الى فضة وقلت لها بتوسل :

ـ بالله ، اذهبي واجلسي جوارها .

ـ يا رجل ! انك مهتم بالموضوع اكثر من اللازم ، لقد مررنا جميعنا في تلك الحالة .

ـ ولكن يافضة ، اني واثق انك ستنالين ثوابا على عملك...

ـ وماذا اعمل لها ؟

ـ اجلسي معها ، فقط ، كي تحس باننا لم ننسها .

ـ والله يا جاسر ، اخذت تشككني ، تاكد لو كانت امرأة لحكمت انك من زرع الجنين في بطنها .

ـ على كل اذا لم تذهبي ، فساذهب انا .

نهضت فضة بقرف زائد ، انها تعرف جيدا انني صاحب الكلمة الاخيرة ، ولكنها كانت تتمتم بصوت مسموع :

ـ البشر لا يجدون من يهتم بهم ونحن نهتم بالحيوانات ، حكمة الله .

لم اطق التمرد طويلا ، نهضت من فراشي وسرت نحو الحظيرة، كانت زوجتي قابعة بصمت في ركنها ، بينما المسكينة تتلوى من الالم، اقتربت منها ومسحت بيدي على رأسها ، ولكنها اطبقت جفنيها ، الهواء كان يخرج حارا من انفها فبينما كانت تلهث بمرارة عجيبة ... لا شك انها الان تبدأ رحلة الموت .

حقا انه شيء مقرف ان ننظر لكائن ما يموت امامنا بعد ان الفناه طويلا .. ان الحزن يكمن في عدم قدرتنا على مساعدته .

خرجت من الحظيرة لاني لم اجرؤ على مواجهة هذا الموقف ،فرحت التمس الله في العراء ، التمس النور ، ادعوه دون سقوف عليه ياخذ بحالها .

خطر بذهني ان اصلي له حتى يضع نهاية لها خيرا كانت ام شرا ، فلا مبرر لتعذيبها .

اخترت مكانا بين الزرع ، وادرت وجهي للقبلة ، وغرقت في الصلاة ، خجلت من نفسي كثيرا عندما تذكرت ان الله يرى ويسمع كل شيء دون حجب او ستار ، ويستجيب دون الحاح ، لقد اصبح فكري مشتتا ، وكاني لست في حضرة الله .

طالت الركعة وصورة المسكينة تعذبني لدرجة لم تستطع لا الارض ، ولا الديدان ولا الاعشاب القاتلة ولا حتى التفكير بالقدرة الالهية نزعها من مخيلتي .

وفجاة سمعت صراخ زوجتي قائلة :

ـ جاسر .. يا جاسر .. اسرع يا جاسر .

ختمت الركعة على عجل وضربات قلبي تزداد .. ركضت مسرعا نحوها وانا الهث قائلا :

ـ بشرى يا فضة .. بشرى ...

ـ خير يا جاسر ... مهرة .

تنفست الصعداء ، وابطأت الخطى وتلاعبت الصور بذهني، دخلت الحظيرة فتصلبت عيناي على المهرة ، كان شعورا بالنشوة يغمرني لدرجة نسيت امها ، كم نحن البشر ناكرون ، ننسى اشياءنا القديمة بسرعة عندما نفاجا بالجديدة .

نظرت الى فضة التي كانت تبتسم وقلت :

ـ اتذكرين اول ولد لنا ؟

ـ وهل انسى عبدالله ؟

ـ ارأيت كيف خرج للحياة باكيا ؟

فطبت حاجبها وقالت بلهجة معاتبة :

ـ وهل هناك امراة في العالم انجبت طفلا يضحك ؟..
قلت مبتسما :
ـ ليس هذا قصدي ، انظري لتلك المهرة التي خرجت للحياة هادئة صابرة لا تبكي ولا تضحك .
اندهشت من حديثي وقالت وكأنها تريد توضيح الامور :
ـ كل الحيوانات تولد بهذا الشكل ، الا الماعز ، لعنة الله عليها، تملأ الدنيا صراخا عندما تطل على الحياه .

حملت بعض الاكياس الفارغه ، ولفت بها المهرة ، ثم دخلت وزوجتي حظيرتنا المجاورة ، وبالرغم من اننا لا نملك هواتف ولا رسائل برقيه الا ان الخبر يشيع عندنا بصورة رهيبة ، لم تمض سوى ساعه واحدة حتى امتلات دارنا باهل القريه الذين قدموا لتهنئتنا ،عمت الضجة ونمت الثرثرة ، وزوجتي تطوف باكواب الساي على الحاضرين

ولما اصبحت جواري همست قائله :
ـ جاسر .. انك تمدح دائما زايد وزوجته ، ان حقدهم كبير علينا ، لقد حضر جميع افراد القريه سواهما ، والله لن ندوس عتبة دارهم ابدا .
نظرت اليها بحدة وقلت :
ـ انوقت غير مناسب ، اهمي بالضيوف ، وليكن قلبك كبيرا.

لم يعجبها كلامي ، ومع ذلك سكتت ، وبدأ الضيوف يغادرون المنزل ، وقبل خروجي اردت ان القي نظرة على المهرة واماها .. لقد كانت المهرة هادئه ، بينما الام تئن انات مؤلمه كانت تريد ان تخفي قسما منها ، ولكنها تخرج رغم ارادتها .. ان الالم يطفح دائما مهما حاولنا اخفاءه .. لا بد ان يرتسم ولو على وجوهنا على الاقل .
صرخت طالبا فضه التي دخلت الحظيرة غاضبة وقلت :
ـ الفرس حالتها تعبانة جدا ، داريها قليلا .
فقالت حانقة :
ـ يا شيخ بالامس صرعنا من اجلها ، واليوم تريد ان تصرعنا اكثر ، اليس عندنا عمل غيرها ؟ مصيبة يارجال .
احمدوا الله لانكم لا تعانون آلام الولادة .
ـ ولكنها تكاد تموت .. أتفهمين ؟
ارتعشت قليلا ثم قالت :
ـ سأرسل وراء الشيخ حسن كي يقرأ على راسها بعض الايات .
عضضت على شفتي باسناني وقلت :
ـ لا لزوم لذلك .

بدأت حالة الفرس تزعجني ، اعرف ان اليد التي امسح فيها على ظهرها ليست يد نبي ، ولكن هذا ما استطيعه من اجلها ..كان احساسا خفيا يملكني بانها غاضبه مني ، ولكني مقتنع بعدم التقصير من اجلها ، سأظل وفيا لها حتى لو بادلتني النظرة الغاضبة .
عدت لعملي ، اقتربت من الفلاحين الذين كانت سيرة الفرس تلعب بهم ، كم تمنيت ان يطل علينا حدث جديد ؟ ليزيل الصورة العالقة باذهانهم ، انهمكت بعمل لا اعرف نهايته .. اقلع الجذور ثم اصون جذورا جديدة .. التفتت يميني فلمحت ولدي عبدالله يركض نحوي ، اقترب لاهثا وهو يقول :

ـ الدم .. يا والدي ، الدم ..
ـ اي دم ؟ تكلم ياولد .
ـ الفرس .. الفرس ..

ارتخت مفاصلي ، فاسندت جسمي على الارض ، تجمع الفلاحون حولي وقد انقلبت عواطفهم فجاة .. سرنا بمظاهرة صامتة تجاه الحظيرة ، دخلنا اليها ، كانت فضه تبكي ، « المصيبه اننا لا نبكي سوى حين نقع ، بالوقت الذي يجب ان تكون فيه عيوننا مفتوحة اكثر » ، اقتربت من الفرس التي رفضت الموت جالسة ، وكانت دماؤها تسيل بغزارة ، واقتربت منها وعندما اردت ان اكرر حكاية المسح معها وكلتني ركلة قويه اصبحت فيها بشبه غيبوبة ، نهضت من الارض ، واندفعت كالمجنون نحوها ، لكن الايدي شابكت لمنعي، الكل يحسبني اريد قتلها ، ليتهم يدركون ان جزءا مني سيموت اذا ماتت ، نظرت للحاضرين وقلت والدموع تتناثر من عيني :

ـ الحق كل الحق معها .. تموت وانا امسح بيدي على ظهرها .
ارتخت قبضاتهم عني ، واقتربت منها ثانيه ، ولكن ضرباتقدميها ازدادت ، فاخذت الفحولها ولكنها في كل مرة كانت ترفض رؤية وجهي ، تلف ، والف وهكذا . وعندما شعرت بان حركتها قد خمدت، اسندت جسمي على جسمها فسقطنا معا ، دماؤنا لم تعد تميز ،وحتى الدموع التي تنهمر من عيني لم تخلف من احمرارها لم تعد هناك من حاجة لايقاف النزيف ، لقد انقطع الدم من تلقاء نفسه ، فقدت القدرة على الوقوف ، فاسندت جسمي على جسمها . كانت دقات قلبها بطيئة ، بينما كانت الصور تتحرك سريعة في ذاكرتي ، وراح خيالي تائها لم تعده لي الذاكرة الا على صوت الطلقات النارية التي كانت تحفر رأس القتيلة .

وليد نجم

سليمان فياض

العيون

الجزء الأول

مجموعة قصصية جديدة لهذا القصاص الفنان الذي يعد في طليعة القصاصين العرب تعبيرا عن أزمة الانسان العربي في المجتمع الحالي .

منشورات دار الآداب صدر حديثا الثمن ٣٠٠ ق.ل.